الجدار

قصة بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

تصدر هذا الشهر عن دار الآداب « قصص سارتر » وهي مجموعة تضم أشهر قصص الكاتب الوجـودي الفرنسي الكبير مترجمة الى العربية بقلم الدكتـور سهيل ادريس . وقد رأينا ان ننشر هنا القصة الاولى من هذه المجموعة :

دفعنا الى قاعة كبيرة بيضاء ، وأخذت عيناي تطرفان لان النـور كان يوجعهما . ثم رأيت طاولة وأربعة أشخاص خلف الطاولة ، كانـوا بلباس مدني ، وكانوا ينظرون في أوراق أمامهم . وكان باقي المساجين قد حشروا في الداخل ، فوجب علينا ان نعبر القـاعة كلها لننضـم اليهم . وكان فيهم عديدون ممن كنت أعرفهم ، وآخرون لا بد انهـم أجانب . اما الشخصان اللذان كانا أمامي ، فقد كانا أشقرين ، وكـان لهما رأسان مستديران ، وكان أحدهما يشبه الاخر : وأتصور انهمـا فرنسيان . وكان أقصرهما قامة يرفع بنطاله طوال الوقت : كان ذلـك مثيرا للاعصاب .

وقد استمر ذلك طوال ثلاث ساعات ، كنت مخبلا منهكا ، وكان رأسي فارغا ، ولكن القاعة كانت مدفأة على نحو جيد ، وكنت أجد هذا لذيذا : فان أربعا وعشرين ساعة كانت قد انقضت علينا ونحن نرتجف بردا . وكان الحرس يقتادون المساجين أمام الطاولة واحدا بعد الاخر . فكان الاشخاص الاربعة يسألونهم آنذاك عن أسمائهم ومهنهم . وفـي اكثر الاحيان كانوا لا يذهبون الى ابعد من ذلك ــ او انهم كانوا يطرحون سؤالا من هنا او من هناك : « هل شاركت في عملية تخريب الذخائر ؟ » او : « اين كنت صباح يوم ٩ وماذا كنت تفعل ؟ » ولم يكونوا يصغون الى الاجوبة ، او لم يكن يبدو عليهم ذلك على الاقل ، كانوا يصمتـون لحظة وينظرون باستقامة أمامهم ثم يأخذون في الكتابة . وقد سألـوا « توم » هل من الصحيح انه كان يخدم في « الفرقة » الدولية ؟ ولـم يكن بوسع توم ان يقول العكس بسبب الاوراق التي وجدت في سترته . أما « جوان » فلم يسألوه عن شيء ، ولكنهم كتبوا وقتا طويلا بعـد ان ادلى لهم باسمه . وقال جوان :

ــ ان اخي جوزيه هو الفوضوي . وانتم تعلمون جيدا انه ليس هنا بعد . اما انا ، فلا أنتمي الى أي حزب ، ولم يسبـق لي قط ان تعاطيت السياسة .

فلم يجيبوا . وقال جوان كذلك :

ــ انني لم أفعل شيئا . ولا اريد ان ادفع ثمن ما فعله الاخرون .

وكانت شفتاه ترتعشان . وأسكته أحد الحرس ثم اقتاده . وجاء بعد ذلك دوري :

ــ هل تدعى بابلو ايبيانا ؟

فاجبت ان نعم .

ونظر الرجل الى اوراقه وقال لي :

ــ اين هو رامون غري ؟

ــ لا أدري .

ــ لقد خبأته في بيتك من ٦ الى ١٩ ؟

ــ لا .

فكتبوا لحظة ، ثم أخرجني الحرس .

وفي الممر ، كان توم وجوان ينتظران بين حارسين . واخذنـا نمشي .

وسأل توم أحد الحارسين :

ــ وإذن ؟

فقال الحارس : ــ ماذا ؟

ــ أهو استجواب ام محاكمة ؟

فقال الحارس :

ــ بل كانت هي المحاكمة .

ــ وما الذي سيفعلون بنا اذن ؟

فأجاب الحارس بجفاء .

ــ ستبلغون الحكم في زنزاناتكم .

وكان ما يعتبر زنزانة أحد أقبية المستشفى . وقد كان البـرد فيه قطيعا بسبب تيارات الهواء . وكنا طوال الليل نرتجف بـردا ، ولم يكن الوضع خيرا من ذلك في أثناء النهار . وقد كنت قضيت الايام الخمسة السابقة في حبس بالابرشية يرجع عهده بلا شك الى القرون المتوسطة : ولما كان ثمة كثير من المساجين وقليل من الحيز ، فقـد زُجّوا كيفما اتفق . ولم أكن آسفا على محبسي : فانا لم اكن اشكو فيه من البرد ، وانما كنت فيه وحدي ، وكان ذلك محنقا مع مرور الزمن . واما في القبو ، فقد كان لي رفاق .

لم يكن جوان يتكلم : فقد كان خائفا ، ثم انه كان اصغر سنا مـن ان يكون له موقف حازم . اما توم ، فقد كان محدثا بارعا ، وكـان يتقن الاسبانية .

وقد كان في القبو مقعد خشبي طويل وأربع وسائد من قش . ولقد جلسنا حين أعادونا اليه وجعلنا ننتظر في صمت . وقال توم بعد لحظة :

ــ اننا هالكون .

فقلت : ــ وهذا هو رأيي كذلك ، ولكني اظن انهم لن يفعـلوا شيئا للصغير .

قال توم : ــ ليس لديهم ما يأخذونه عليه . كل ما في الامـر انه شقيق مناضل .

ونظرت الى جوان : ولم يكن يبدو عليه انه يسمع . واستطرد توم يقول :

ــ أتدري ماذا يفعلون في ساراغوس ؟ انهم يضجعون الاشخاص في الطريق ويمرون فوقهم بشاحناتهم . لقد انبانا بذلك مراكشـي فار . وهم يقولون انهم يفعلون ذلك توفيرا للذخيرة .

فقلت : ــ ولكن هذا لا يوفر البنزين .

وكنت مغتاظا من توم : فما كان ينبغي له ان يقول هذا . وقـد أضاف يقول :

ــ لقد كان هناك ضباط يتنزهون في الطريق ويراقبـون ذلك ، وأيديهم في جيوبهم ، وهم يدخنون السكاير . هل تعتقد انهـم سيجهزون على اولئك الافراد ؟ دعك من هذا ! انهم يدعونهم يزعقون ويصرخون . وقد يستمر ذلك ساعة في بعض الاحيان . وكـان المراكشي يقول انه كاد في المرة الاولى يهلك .

قلت : ــ لا احس انهم سيفعلون ذلك هنـا . الا اذا كانـوا مفتقرين حقا الى الذخيـرة .

وكـان النهار يدخل من اربعة منافذ ومن كوة مستديرة فتحت فـي السقف الى اليسار ، وكانت تطل على السماء . ومن هذه الفتحـة

المستديرة ، التي تغلق عادة بباب صغير ، كان الفحم يلقى الى القبو. وقد كان تحت الكوة تماما كومة كبيرة من غبار الفحم ، وكان معدا من قبل لتدفئة المستشفى ، ولكن المرضى كانوا قد اجلوا ،منذ بدء الحرب ، فظل الفحم قائما هناك بلا استعمال ، حتىان المطر كان يسقط عليه بعد أن نسي احدهم اغلاق الباب الصغير .

وأخذ توم يرتجف ، وقال وهو يشتم :

ـ انني ارتجف .انالرعشة تعاودني .

ونهض واخذ يقوم بحركات رياضية . وكان قميصه ينفتح عنصدره الابيض المشعر لدى كل حركة . وقد تمددعلى ظهره ، ورفع ساقيه في الهواء ، وقام بحركة المقص :وكنت ارى مؤخرته الضخمة ترتجف. كان توم قويا شديد البأس ، ولكنه كان يملك كثيرا من الشحم . وكنت افكر ان رصاص بندقية اورؤوس حراب لن تلبث ان تنغرسفي هذه الكتلة من اللحم الطري ، كما تنغرس في قطعة الزبدة . ولم يكن ذلك يحدث لدي من الاثر كما لو انه كان هزيلا .

لم اكن اشكو البردتماما،ولكني كففت عن الاحساس بكتفي وذراعي . وكان ينتابني بين الفينة والفينة شعور بأن شيئا ما ينقصني ، فابدأ في البحث عن سترتي فيما حولي ، ثم اتذكر فجأة انهم لم يعطوني سترة . وكان ذلكشاقا . لقد اخذوا ثيابنا ليعطوها جنودهم ، ولم يتركوا لنا سوى قمصاننا ـ وهذه البناطيل القماشية التي كان المرضى في المستشفى يرتدونها في ابان الصيف.

ونهض توم بعد فترة ، فجلس الى جانبي وهو يلهث .

ـهل عاد لكالدفء؟

ـ يلعن دينه ،كلا . ولكني ضيق الانفاس .

وحوالي الساعة الثامنة مساء دخلمقدممع كتائبيين . وكانتبيدهورقة وقد سأل الحارس :

ـ ما هي اسماء هؤلاء الثلاثة ؟

فقال الحارس :ستينبوك وايبياتا وميربال .

فوضع المقدم نظارته وحدق في لائحته :

ـ ستينبوك .. ستينبوك .. هوذا . لقد حكم عليك بالموت .وسترمى بالرصاص صباح الغد .

ونظر مرة اخرى ثم قال :

ـ والاخران كذلك .

قال جوان : ـ هذا غير ممكن . انا لا ..

فنظر اليه المقدمنظرةاندهاش:

ـ ما اسمك ؟

فقال : ـ جوان ميربال .

قال المقدم : ـ ان اسمكمفيد هنا . لقد حكم عليك .

فقال جوان : ـانيلمافعلشيئا.

فهز المقدم كتفيه وانفتل نحو توم ونحوي :

ـ هل انتما من سكان الباسك ؟

ـ ليس فينا من هو من سكانالباسك.

فبدا عليه الانزعاج :

ـ لقد قيل لي ان هناك ثلاثة باسكيين . ولن أضيع وقتي فيالجري وراءهم . واذن ، انكم بالطبع لا تريدون كاهنا ؟

فلم نجب . وقال:

ـ سيأتي الساعة طبيب بلجيكي . وهو يحمل اذنا بقضاءالليلمعكم. وادى التحية العسكرية وخرج .

قال توم : ـ ما الذي كنت اقولهلك ؟ اننا هالكون .

قلت : ـ نعم .وهذافظيعبالنسبة للصغير .

كنت اقول ذلك لاكون عادلا ، ولكني لم اكن احب الصغير . كان له وجه مفرط الدقة ، وكانالخوفوالالم قد شوهاه ولويا جميع ملامحه . منذ ثلاثة ايام كان ما يزال صبيا اقرب الى اللطف والرقة، مما كان جديرا بان يروق ،اماالان، فقد كان يشبه طابة قديمة، وكنت افكر بانه لن يعود شابا ابدا ،حتى ولو اطلق سراحه . ولم يكن بالامر السيء ان يعطي بعضالشفقة، ولكن الشفقة تثير اشمئزازي ، انه بالاحرى ينفرني . ولم يكن قد قالشيئا اخر بعد، ولكنه كان قد اصبح رمادي اللون : كان وجهه ويداه رمادية .وقد عاد يجلس وهو ينظر الى الارض بعينين مستديرتين . وكان توم ذا قلب طيب ، وقد شاء ان يأخذبذراعه ، ولكن الصغير تخلص منه بعنف وعلى وجهه تكشيرة .

وقلت له بصوت منخفض :

ـ دعه ، فانت ترى جيداانه سيأخذ في الزعيق .

فأطاع توم على مضض ، لقدكانيود لو يواسي الصغير ، فيشغله ذلك ويصرفه عن التفكير بنفسه. غير ان ذلك كان يزعجني : انه لم يسبق لي قط ان فكرت بالموتلان فرصة ذلك لم تمثل امامي، اما الان ، فان الفرصة ماثلة هنا، ولم يكن ثمة ما يعمل غير التفكير بذلك .

واخذ توم يتكلم ،فسألني :

ـ هل قتلت اشخاصا ، أنت ؟

فلم اجب . فبدأ يشرح لي انه قتل ستة منذ مطلع شهر اب ، ولم يكن مطلعا علىالوضع،وكنتارىجيداانهلم يكن « يريد » ان يطلععليه. وانا نفسي لم اكن اتحقق كل التحقق ، وكنت اتساءل عما اذا كانوا يتألمون كثيرا ، وافكر بالرصاصات واتصور مطرها المحرق عبرجسمي. كل ذلك كان خارج المسألة الحقيقية ، ولكني كنت هادئا : كان امامنا الليل بطوله لكي نفهم . وقد كف توم بعد برهة عن الكلام، فنظرت اليه من زاوية عيني، فرأيت انه قد اصبح رمادي اللون، هو ايضا، وان هيأته كانت بائسة ، فقلت لنفسي : « لقد بدأ الامر » وكان الليل قد هبط تقريبا ، وكان شعاع كاب يتسرب عبر الكوى وكومة الفحم فيحدث لطخة ضخمة تحت السماء ، ومن ثقب السقف،كنت قد بدأت ارى نجمة : سيكون الليل صافيا ومثلجا .

وفتح الباب ودخل حارسان . وكان يتبعهما رجل اشقر يرتدي ثوبا عسكريا صوفي اللون ، وقد حيانا وقال :

ـ انني طبيب .ولدي اذن بان الازمكمفي هذه الظروف الشاقة .

وكان له صوت عذب متميز . وقد قلت له :

ـ ماذا اتيتتفعلهنا ؟

ـ أضع نفسي تحت تصرفكم ، وسابذل كل جهدي لتكون هذهالساعات اقل ثقلا عليكم .

ـ لماذا أتيت الينا ؟ان هناك اشخاصا اخرين ، والمستشفى يغصبالنزلاء

فأجاب بلهجة مبهمة

ـ لقد ارسلوني الى هنا .

واضاف على عجل :

ـ تحبون ان تدخنوا ، أليس كذلك ؟ انمعيسكاير، بلحتىسيكارات

وقدم لنا سكاير انكليزية ، ولكننا رفضنا . ونظرتاليه في عينيه فبدا منزعجا ، وقلت له :

ـ انك لا تجيء الينا بدافع الشفقة . والحق انني اعرفك .فلقد رأيتك مع بعض الفاشيين في باحة الثكنة يوم قبض علي .

وهممت باستئناف كلامي ، ولكن حدث لي فجأة شيء ما باغتني: لقد كف حضور هذا الطبيب عن اثارة اهتمامي فجأة . ان منعادتي اذا اهتممت بانسان الا اتخلى عنه . ومع ذلك ، فقد زايلتنيالرغبة في الكلام ، فهززت كتفي وصرفت عنه عيني . وبعد ذلك بقليل ، رفعت رأسي : فاذا هو يرقبني بهيئة فضول . وكان الحارسان قد جلسا على فراش من قش . وكانبدرو، الهزيل الطويل،يدير ابهاميه ، والاخر يحرك رأسه بين الفينة والفينة ليمنع نفسهمنالنوم.

وقال بدرو فجأة للطبيب :

ـ هل تريد ضوءا ؟

فأومأ برأسه ان « نعم » : أظن انه يملك من الذكاء مقدار ما يملك الانسان البليد تقريبا ، ولكن لا شك في انه لم يكنخبيثا وقد خيل الي ، وانا انظر الى عينيه الكبيرتين الزرقاوين

الباردتين ، ان ما يعوزه انما هو خاصة قصور الخيال . وخرج بدرو ثم عاد بمصباح كاز وضعه على طرف المقعد الخشبي الطويل. وكان يرسل نورا رديئا ، ولكنه كان خيرا من لا شيء : فقد سبق لهم مساء البارحة ان تركونا في الظلام . ونظرت فترة من الزمن الى دائرة النور التي كان المصباح يرسمها على السقف . وكنت مبهورا . ثم استيقظت فجاة ، فامحت دائرة النور واحسستني مسحوقا تحت عبء هائل . لم تكن هي فكرة الموت ، ولا الخوف: وانما كان ذلك شيئا غفلا .كانت وجنتاي تحرقانني وكان بي صداع.

ونفضت نفسي ونظرت الى رفيقي . كان توم قد دس راسه بين يديه ، فلم اكن ارى الا رقبته السمينة البيضاء . اما جوان الصغير ، فقد كان اسوانا وضعا ؛ وكان فاغر الفم ومنخراه يرتعشان .وقد اقترب الطبيب منه ووضع يده على كتفه كانما يشجعه : ولكن عينيه ظلتا باردتين . ثم رأيت يد البلجيكي تهبط خفية على ذراع جوان حتى الرسغ . وقد استسلم جوان للحركة في لامبالاة . وتناول البلجيكي رسغه بين اصابعه ، بهيئة شاردة ، وفي الوقت نفسه تراجع قليلا وتدبر امره ليوليني ظهره . ولكنني انحنيت الى خلف فرأيته يسحب ساعته وينظر اليها لحظة من غير ان يترك رسغ الصغير . وبعد لحظة ترك اليد الجامدة تسقط وذهب يستند الى الجدار، وكانما تذكر فجاة شيئا هاما جدا يقتضي تسجيله على الفور، فتناول من جيبه دفترا صغيرا وكتب عليه بضعة اسطر . وفكرت في غضب: « يا للجبان القذر ! لئن اقبل يجس نبضي ، فسارسل قبضتي في وجهه الوسخ ! »

ولم يجيء ، ولكني احسست أنه كان ينظر الي ، فرفعت رأسي وبادلته نظرته . وقال لي بصوت لاشخصي :

ـ ألا ترى اننا نرتجف هنا من البرد ؟

كان يبدو وكانه مقرور ، كان بنفسجي اللون ، وقد أجبته :

ـ انني لا أشعر بالبرد .

ولم يكف عن النظر الي بعين قاسية . وفهمت فجاة فرفعت يدي الى وجهي : كنت اتفصد عرقا . في هذا القبو ، في ابان الشتاء ، في ملتقى التيارات الهوائية،كنت أرشح عرقا . وامررت اصابعي في شعري الذي كان قد تلبد بالنضح، وتبينت في الوقت نفسه ان قميصي كان مرطبا وكان يلتصق بجلدي : كنت اسيل عرقا منذ ساعة على الاقل من غير ان أحس بشيء . ولكن ذلك لم يفت البلجيكي الخنزير ، كان قد راى القطرات تتدحرج على خدي وكان قد فكر : ان هذه آية حالة من الرهبة شبه المرضية ، وكان قد أحس بانه طبيعي وفخور بان يكون كذلك لانه كان يحس البرد . واردت ان أنهض لاذهب فادق عنقه ؛ ولكني ما كدت اقوم بحركة بسيطة حتى امحى خجلي وغضبي ، وعدت أسقط على المقعد الخشبي بلا اكتراث .

واكتفيت بان فركت عنقي بمنديلي لاني كنت الان احس العرق يقطر من شعري على رقبتي ، وكان ذلك يزعجني . والحق اني ما لبثت ان عدلت عن الدلك ،كان ذلك غير مجد : فان منديلي كان قد اصبح قابلا للعصر ، وما زلت أرشح . كنت ارشح ايضا في الفخذين ،وكان بنطالي الرطب يلتصق بالمقعد الخشبي .

وتكلم جوان الصغير فجاة :

ـ انت طبيب ؟

قال البلجيكي : ـ نعم .

ـ هل يتعذب المرء .. طويلا ؟

قال البلجيكي بصوت ابوي:

ـ اوه ! متى ؟ ولكن لا . ان الامر ينتهي بسرعة.

كان يبدو وكانه يطمئن مريضا قد دفع اجرته

ـ ولكني .. قيل لي .. ان الامر يقتضي غالبا دورتين من الاطلاق.

فقال البلجيكي وهو يهز رأسه :

ـ احيانا . فقد يتفق ألا تصيب الدورة الاولى ايا من الاعضاء الحيوية .

ـ وعند ذلك يجبان يحشوا البنادق من جديد ويصوبوا مرة اخرى؟

ففكر واضاف بصوت أبح :

ـ ان ذلك يستغرق وقتا !

كان يحس خوفا فظيعا من ان يتالم ، ولم يكن يفكر بغير هذا: وكان ذلك يتناسب وسنه . اما انا ، فلم اكن افكر بهذا بعد، ولم يكن الخوف من الالم هو الذي يجعلني انضح العرق :

وقد نهضت وسرت حتى كومة الفحم . وانتفض توم ورماني بنظرة حاقدة : كنت ازعجه لان حذائي كان يصر . وكنت اتساءل عما اذا كان وجهي في مثل وجهه امتقاعا: ورأيت انه ما يزال يرشح . كانت السماء رائعة ، ولم يكن اي نور ينسل الى هذه الزاوية المظلمة، ولم يكن لي الا ان ارفع رأسي لالمح « الدب الاكبر » . ولكن ذلك لم يكن بعد كما كان في السابق :

كان بوسعي في الليلة السابقة ان ارى من محبسي في الابرشية رقعة كبيرة من السماء ، وكانت كل ساعة من النهار تبتعث لدي ذكرى مختلفة . ففي الصباح اذ كانت السماء ذات زرقة قاسية وخفيفة ، كنت افكر بشواطيء الاستحمام عند حافة الاطلنطيك ، وظهرا كنت ارى الشمس فاتذكر حانة في اشبيلية كنت اشرب فيها المانزنيلا وانا اكل سمك السنمورة والزيتون ، اما بعد الظهر ، فقد كنت في الظل ، وكنت افكر بالظل العميق الذي يمتد على نصف الحلبات ، بينما يشعشع النصف الاخر في الشمس : لقد كان شاقا حقا ان ارى الارض كلها على هذا النحو تنعكس في السماء . اما الان فقد كان بوسعي ان انظر في الهواء ما شئت ، فان السماء لم تكن تبتعث لدي بعد شيئا . وكنت اوثر هذا . وقد عدت اجلس قرب توم ، وانقضت فترة طويلة .

واخذ توم يتكلم ، بصوت منخفض . كان لابد له من ان يتكلم دائما ، والا فانه لايتعرف جيدا الى نفسه في افكاره . واعتقد انه انما كان يتوجه الي ، ولكنه لم يكن ينظرني . ولا شك في انه كان يخشى ان يراني كما كنت : ممتقعا وناضحا بالعرق : لقد كنا متشابهين وأسوأ

صدر حديثا :

الفجر آت يا عراق

للشاعر :
هلال ناجي

الديوان الذي يرهص بثورة العراق الاخيرة على الطاغية قاسم ويغني آمال الشعب العربي في العراق ونضاله في طريق الوحدة والاشتراكية والحرية .

قصائد من وحي ١٤ تموز وثورة الموصل وثورة ١٤ رمضان .

الثمن ليرتان لبنانيتان

منشورات :
دار الآداب ـ بيروت
مكتبة النهضة ـ بغداد

من مرآتين احدنا بالنسبة للاخر . كان ينظر الى البلجيكي ، الحي . وكان يقـول :

ـ هل تفهم انت ؟ اما انا ، فلا افهم .

واخذت اتكلم بصوت منخفض كذلك . وكنت انظر الى البلجيكي .

ـ ماذا ؟ ماذا هناك ؟

ـ سيحدث لنا شيء لا استطيع ان افهمه .

وكان ثمة رائحة غريبة حول توم . وخيل الي اني كنت اشد احساسا بالروائح مما انا في العادة . وقهقهت :

ـ ستفهم عما قليل .

فقال بلهجة معاندة :

ـ ليس ذلك بواضح . اني اود كثيرا ان املك الشجاعة ، ولكـن ينبغي على الاقل ان اعرف ... اسمع . سوف يقودوننا الى الساحة . حسنا . وسيصطف الجنود امامنا . كم سيكون عددهم ؟

ـ لادري . خمسة او ثمانية . لا اكثر .

ـ حسنا . سيكونون ثمانية . وسيصيحون بهم : « صوبوا » وسارى البنادق الثماني مصوبة نحوي . واحسب اني اود لو ادخل الجدار ، وسادفع الجدار بظهري بكل قواي ، ولكن الجدار سيصمد ، كما يحدث في جميع الكوابيس . هذا كله استطيع ان اتصوره . آه ! كم أستطيع ان اتصوره ، لو كنت تعلم !

فقلت له :

ـ كفى ! انني انا ايضا اتصوره .

ـ لا بد ان يحدث ذلك المأ فظيعا .

واضاف في شراسة :

ـ انت تعلم انهم يصوبون على العينين والفم بغاية التشويه ، لقد بدأت منذ الان احس الجروح ، منذ ساعة تنتابني آلام في رأسي وعنقي ليست هي آلاما حقيقية ، بل هي أسوأ : انها الالام التي سأحسها غدا صباحا . ولكن بعد ذلك ؟

وكنت ادرك جيدا ما كان يقصد اليه ، ولكن لم اكن اريد ان يبدو علي ذلك : اما الالام ، فقد كنت انا ايضا احملها في جسمي ، كمجموعة من الندوب الصغيرة . لم اكن استطيع التخلص من الاحساس بها ، ولكني كنت مثله ، ولم اكن أعلق عليها اهمية .

وقلت بقسوة :

ـ وبعد ذلك سوف تحشو فمك بالهندباء البرية .

واخذ يتحدث لنفسه وحدها : لم يكن يغادر البلجيكي بعينيه . ولم يكن يبدو على هذا انه يسمعه . كنت اعرف ما الذي جاء يفعله ، لم يكن يهمه ما كنا نفكر به ، كان قد جاء ينظر الى اجسامنا ، أجسام كانت تحتضر وهي حية .

كان توم يقول :

ـ كما يحدث في الكوابيس . ان المرء يريد ان يفكر بشيء ما ، ويحس طوال الوقت انه سيدرك ويفهم ، ثم ينساب ذلك منه ويفوته . واقول لنفسي : لن يكون بعد ذلك ثمة شيء . ولكني لا افهم ما يعني هذا . هناك لحظات ادرك فيها ذلك تقريبا .. ثم يسقط هذا ، واعود افكر بالالام والرصاصات والانفجارات . أقسم انني مادي ، انني لم اصبح مجنونا . ولكن هناك شيئا معقدا . انني ارى جثتي : ليس ذلك صعبا ، ولكنني « انا » الذي اراها « بعيني » . ينبغي أن اتمكن من التفكير .. التفكير بانني لن ارى بعد شيئا ، ولن اسمع بعد شيئا ، وان العالم سيستمر بالنسبة للاخرين . اننا لم نخلق لنفكر بهـذا ، يا بابلو . بوسعك ان تصدقني : لقد حدث لي مرة ان سهرت طوال الليل وانا انتظر شيئا . ولكن هذا الأمر هنا مختلف : انه يقبض علينا من الخلف ، يا بابلو ، ولن يتاح لنا الوقت للاستعداد له .

قلت : ـ أغلق فمك . أتريد انأنادي معرفا ؟

فلم يجب . وقد سبق لي ان لاحظت انه كان لديه ميل للظهـور بمظهر النبي وللمناداتي ببابلو بصوت ابيض . ولم اكن احب هذا كثيرا ، ولكن يبدو ان جميع الايرلنديين هم كذلك . وكان لدي شعور مبهم بان رائحة بول تنبعث منه . والحق اني لم اكن كثيرا من الود لتوم ، ولم اكن اعرف سبب ذلك ، وكان المفروض ان احفظ له قدرا اكبـر من الود ، بحجة اننا كنا سنموت معا . ان هناك اشخاصا كان الامـر يكون معهم مختلفا . مع رامون غري مثلا . اما بين توم وجوان ، فقـد كنت احسني وحيدا . والحق اني كنت افضل ذلك : فلو كنت مع رامون، فلربما تعطفت ، ولكني كنت قاسيا قسوة فظيعة في تلك اللحظة ، وكنت اود ان ابقى قاسيا .

وظل يمضغ الكلمات ، في شيء من الشرود . والمؤكد انه كان يتكلم حتى يمنع نفسه من التفكير . وكانت رائحة البول تنبعث منه فتغفغم الانف ، كما هو شأن المصابين بالبروستات . وقد كنت بالطبع مـن رأيه ، وكان بامكاني ان اقول كل ماكان يقوله : فليس « طبيعيا » ان يموت المرء . ومنذ ان ادركت اني مقبل على الموت ، كف كل شيء عن ان يبدو لي طبيعيا ، لا بقية الفحم هذه ، ولا ذلك المقعد الخشبي ولا وجه بدرو القذر . غير انه كان يسوءني ان افكر تفكير توم نفسه . وكنت اعلم جيدا اننا ، طوال الليل ، سنواصل تفكيرنا نفسه في وقت واحد ، بفـرق خمس دقائق ، او سنرشح عرقا ، او سنرتعش في اللحظة نفسها . وقد حدجته بطرف عيني ، وللمرة الاولى بدا لي غريبا : كان يحمل موتـه على وجهه . وكنت مجروحا في كبريائي : فطوال اربع وعشرين ساعة ، كنت قد عشت الى جانب توم ، واستمعت اليه ، وتحدثت معه ، وكنت اعرف انه لم يكن بيننا شيء مشترك . وها نحن الان متشابهان كتوأمين، لانا بكل بساطة سنموت معا .

وتناول توم يدي من غير ان ينظر الي :

ـ بابلو .. انني أتساءل ... أتساءل عما اذا كنا حقا سننعدم .

وأفلتت يدي ، وقلت له :

ـ انظر مابين قدميك ، ايها القذر .

كان بين قدميه مستنقع ، وكانت قطرات تسقط من بنطاله . وقد قال في شدة :

ـ ما هذا ؟

فقلت له : ـ انك تبول في سروالك .

فقال غاضبا :

ـ هذا غير صحيح . انني لأبول . انني لأحس شيئا .

وكان البلجيكي قد اقترب ، فسأل في لهجة مشاركة زائفة :

ـ هل تحس بألم ما ؟

فلم يجب توم . ونظر البلجيكي الى المستنقع من غير ان يقـول شيئا . وقال توم بصوت متوحش :

ـ لادري ماهذا ، ولكني لست خائفا . أقسم لكم اني لسـت خائفـا .

فلم يجب البلجيكي . ونهض توم واتجه الى ركن يبول فيه . ولما عاد وهو يزرر فتحة بنطاله ، جلس ثانية وانقطع عن الكلام . وكـان البلجيكي يسجل ملاحظات .

وكنا ننظر اليه نحن الثلاثة لانه كان حيا . كانت له حركات حي ، وهموم حي ، كان يرتجف فيهذا القبو ، كما لابد للاحياء ان يرتجفوا ، وكان له جسم مطيع جيد التغذية . اما نحن ، فلم نكن نحس بعـد أجسامنا ، لم نكن نحسها بعد على النحو نفسه ، بأية حال . وكان بودي ان أجس بنطالي ، فيما بين فخذي ، ولكنني لم اكن أجرؤ ، وكت انظـر الى البلجيكي ، مقوسا على ساقيه ، سيد عضلاته ـ والذي كان يستطيع ان يفكر في الغد . لقد كنا هنا ثلاثة اشباح محرومة من الدم ، كنـا ننظر اليه وكنا نمتص حياته كالخفافيش .

وانتهى اخيرا الى الدنو من جوان . أتراه كان يريد ان يجس رقبته بدافع مهني ما ، ام انه كان يستجيب لشعور احسان شفوق ؟ لئن فعل ذلك بدافع الاحسان فتلك هي المرة الوحيدة الفريدة طوال الليل . لقد لامس رأس جوان الصغير وعنقه . واستسلم الفتى لحركته ، مـن غير ان يغادره بعينيه ، ثم تناول يده فجأة ونظر اليها نظرة غريبة . كان

يمسك بيد البلجيكي بين يديه ، ولم يكن فيهما شيء مستحب ، تانك الكماشتان الرماديتان اللتان كانتا تشدان هذه اليد السمينة المحمرة . وكنت اتوقع جيدا ما سوف يحدث ، ولا بد ان توم كان يتوقعه ايضا : ولكن البلجيكي لم يكن يرى فيه الا نارا ، فكان يبتسم بسمة ابوية . وبعد لحظة ، رفع الفتى اليد الضخمة الحمراء الى فمه واراد ان يعضها. فتخلص البلجيكي بحيوية ، وتراجع نحو الجدار متعثرا . وقد نظر الينا لحظة في شيء من الذعر ، ولا بد انه كان يدرك فجاة اننا لم نكن الا رجالا مثله . واخذت اضحك ، فانتفض احد الحارسين . اما الاخر ، فكان قد اغفى ، وكانت عيناه مفتوحتين على سعتهما ، بيضاوين.

كنت احسني متعبا مهتاجا في الوقت نفسه . ولم اكن اريد ان افكر بعد بما سوف يحدث عند الفجر ، بالموت . ان ذلك لم يكن ليجدي شيئا فانا لم اكن التقي الا كلاما او فراغا . ولكني كنت ما ان احاول التفكير بشيء اخر حتى ارى فوهات بندقيات مصوبة نحوي . وربما عشت عشرين مرة متتالية مشهد اعدامي ، بل لقد حسبت مرة ان الامر يتم فعلا : لابد اني كنت قد غفوت دقيقة . كانوا يجرونني نحو الجدار وانا اتخبط ، وكنت اطلب منهم العفو . وقد استيقظت منتفضا ونظرت الى البلجيكي : كنت خائفا ان اكون قد صرخت في اثناء نومي ، ولكنه كان يملس شاربه ، انه اذن لم يلاحظ شيئا . واظن اني لو شئت لكان بوسعي ان انام فترة : لقد كنت ساهرا منذ ثمان واربعين ساعة ، وكنت منهوك القوى . غير اني لم اكن راغبا في فقد ساعتين من الحياة يكونون قد جاؤوا في اثنائهما فايقظوني عند الفجر وتبعتهم مخدرا بالنوم من غير وعي ، لم اكن اريد هذا ، لم اكن اريد ان اموت كحيوان ، كنت اريد ان افهم . ثم اني كنت اخشى ان تحدث لي كوابيس . وقد نهضت وذرعت القبو جيئة وذهابا ، واخذت افكر بحياتي السابقة ، رغبة مني في تغيير افكاري . وقد عاودني حشد خليط من الذكريات . وكان فيها الطيب والرديء ـ او هكذا كنت اصفها « من قبل » . كان فيها وجوه وحكايات . وقد استعدت صورة وجه مصارع ثيران اخترق الثور بطنه بقرنيه في حفلة اقيمت بفلانسيا ، ووجه احد اخوالي ، ووجه رامون غري . وتذكرت حكايات : كيف عشت في بطالة طوال ثلاثة اشهر من عام ١٩٢٦ ، وكيف اوشكت ان اموت جوعا . وتذكرت ليلة كنت قد قضيتها على مقعد خشبي طويل في غرناطة : كان قد مر ثلاثة ايام لم اذق فيها طعاما ، وكنت اتميز غضبا ، ولم اكن اريد ان اموت . ان هذا يجعلني ابتسم . بأي نهم كنت اعدو خلف السعادة ، وخلف النساء ، وخلف الحرية ! ما جدوى ذلك ؟ لقد اردت ان احرر اسبانيا ، وكنت معجبا ببي اي مرغال ، وكنت قد انتسبت الى الحركة الفوضوية ، وكنت قد خطبت في اجتماعات عامة : كنت احمل كل شيء على محمل الجد ، كما لو اني كنت مخلدا .

في تلك اللحظة ، أحسست باني كنت أمسك حياتي كلها امامي وفكرت : « انها لكذبة قذرة . » انها لم تكن تساوي شيئا ما دامت قد انتهت . وتساءلت كيف استطعت من قبل ان اتنزه وامازح الفتيات : انني ماكنت لاحرك بنصري لو تصورت تصورا فحسب انني سأموت على هذا النحو . كانت حياتي امامي موصدة ، مغلقة كالكيس ، ومع ذلك فان كل ماكان في داخلها كان غير ناجز . وحاولت لحظة ان احكم عليها كان بودي لو اقول لنفسي : انها حياة جميلة . ولكن لم يكن ممكنا الحكم عليها ، فلم افهم شيئا قط . ولم اكن متحسرا على شيء: كان ثمة كثير من الاشياء التي كان بامكاني ان اتحسر عليها ، من مثل نكهة المانزنيلا او الحمامات التي كنت آخذها في خليج صغير في قادش، ولكن الموت كان قد انتزع سحر كل شيء .

وفجأة ، خطرت للبلجيكي فكرة عظيمة ، فقال لنا :

ـ ان بوسعي ياأصدقائي ان اتطوع ـ شريطة ان توافق الادارة العسكرية ـ بحمل كلمة منكم او ذكرى الى الاشخاص الذين يحبونكم ..

فدمدم توم :

ـ ليس لي احد ...

ولم اجب بشيء . وانتظر توم لحظة ثم تأملني بفضول :

ـ الا تبعث بشيء الى كونشا ؟

ـ لا .

وكنت احتقر هذا التواطؤ المتعاطف : كانت تلك غلطتي ، فلقد تحدثت عن كونشا في الليلة السابقة ، وكان علي ان امتنع عن ذلك . كنت معها منذ عام ، وقد كنت على استعداد عشية الامس لان اقطع ذراعي بضربة فاس من اجل ان اراها خمس دقائق . وكان هذا ما دفعني الى التحدث عنها ، كان ذلك أقوى مني . اما الان ، فلم يكن لدي بعد اية رغبة في ان اراها ثانية ، ولم يكن لدي بعد ما اقوله لها . بل انني لا رغبة عندي في ان اضمها بين ذراعي : كنت اشمئز من جسمي ، لانه كان قد اصبح رماديا ، وكان يرشح عرقا ـ ولم اكن متاكدا من انني لن اشمئز من جسمها ايضا . ستبكي كونشا حين تعلم نبا موتي ، وستفقد طوال اشهر طعم الحياة . غير اني كنت مع ذلك انا الذي سيموت . وفكرت بعينيها الرقيقتين . حين كانت تنظر الي ، كان شيء ما ينتقل منها الي . ولكني فكرت بان الامر قد انتهى : فلو انها كانت تنظر الي « الان » لبقي نظرها في عينيها ، ولما انتقل الي . كنت وحيدا .

وكان توم وحيدا كذلك ، ولكن لا بالطريقة نفسها . كان قد ركب المقعد الخشبي في جلسته وجعل ينظر اليه مبتسما وعليه هيئة الدهشة. وقد مد يده ولمس الخشب في حذر ، كما لو انه كان يخشى ان يكسر شيئا ما ، ثم سحب يده بحيوية وارتعش . ولو كنت انا نفسي توم ، لما تسليت بملامسة الخشب ، صحيح ان ذلك كان تمثيلا من تمثيل الايرلنديين ، ولكني كنت اجد كذلك ان الاشياء كانت ذات هيئة غريبة : كانت اكثر امحاء ، واقل كثافة من العادة . كان حسبي ان انظر الى المقعد ، والى المصباح ، والى كومة الفحم لاشعر اني مقدم على الموت . وبالطبع لم اكن استطيع ان اتصور صوتي بوضوح ، ولكني كنت اراه في كل مكان ، على الاشياء ، وفي الطريقة التي بها تقهقرت الاشياء ولبثت على مسافة ما ، بصورة خفية ، كاشخاص يتكلمون بصوت منخفض امام سرير انسان محتضر . ان الذي لمسه توم على المقعد انما كان « موته».

لو جاءوا يبلغونني ، وانا في تلك الحالة ، انه كان بوسعي ان اعود بهدوء الى بيتي ، وانهم يتركون لي حياتي سالمة ، لخلفني ذلك في برود : ان بضع ساعات او بضع سنوات من الانتظار هي سواء ، حين

ترقبوا كتاب الموسم :

هذا طريقنا

بقلم رائد الامة العربية الرئيس جمال عبد الناصر

دستور ينير الطريق للاجيال العربية الصاعدة في الحاضر والمستقبل نحو التحرر والوحدة والاشتراكية

منشورات : دار النشر للجامعيين ـ بيروت

مكتبة النهضة ـ بغداد

يفقد المرء وهم انه ابدي . انني لم اكن متشبثا بعد بشيء ، على نحو ما ، كنت هادئا . ولكنه كان هدوءا فظيعا ـ بسبب جسمي : جسمي الذي كنت أرى بعينيه ، وكنت أسمع بأذنيه ، ولكنه لم يكن بعد اياي ، كان يعرق ويرتجف وحده حتى انني كنت انكره . كنت مضطرا الى ان ألمسه وان انظر اليه لاعرف كيف اصبح ، كما لو انه كان جسم انسان اخر . كنت احيانا أحسه بعد ، كنت احس انزلاقات ، وضروبا من التدحرجات، كما يحدث اذ يكون المرء في طائرة تهبط عموديا ، او انني كنت احس قلبي يخفق . ولكن ذلك لم يكن ليطمئنني ، ان كل ماكان يصدر عن جسمي كان ذا هيئة مشبوهة قذرة . كان معظم الوقت صامتا ، هادئا ، ولم اكن احس بعد شيئا ، الا نوعا من الثقل ، حضورا قذرا بازائي ، كان لدي شعور باني مشدود الى دودة هائلة . وقد لمست ذات مرة بنطالي ، فاحسست بأنه رطب، ولم اكن اعرف ان كان مبتلا من العرق ام من البول ، ولكني ذهبت ابول على كومة الفحم ، على سبيل الاحتياط .

وسحب البلجيكي ساعته ونظر اليها وقال :

ـ انها الساعة الثالثة والنصف .

القذر الجبان ! الا بد انه تقصد ذلك تقصدا . وقد قفز توم في الهواء : ذلك اننا لم تكن قد شعرنا بعد بأن الزمن يمر ، كان الليل يحيط بنا ككتلة شوهاء مظلمة ، بل انا لم اكن اذكر انه كان قد بدأ .

واخذ جوان الصغير يصرخ . كان يلوي يديه ويقول :

ـ لااريد ان اموت . لا اريد ان اموت .

وركض عبر القبو كله ، وهو يرفع ذراعيه في الهواء ثم ارتمى على احدى فرشات القش وجعل يبكي . وكان توم ينظر اليه بعينين كئيبتين ولم تكن لديه بعدحتى الرغبة في تعزيته . والواقع ان الوضع لم يكن يقتضي منه هذا الجهد . كان الفتى يحدث من الضجة اكثر مما كنا نحدث ، ولكنه كان مصابا أقل منا : كان يشبه مريضا يدافع مرضه بالحمى . وحين لايكون بعد من حمى ، فان الامر اخطر بكثير .

كان يبكي : وكنت ارى جيدا انه كان مشفقا على نفسه ، انه لم يكن يفكر بالموت . واخذتني الرغبة ، مدة لحظة ، لحظة واحدة ، ان ابكي انا ايضا ، ان أبكي شفقة علي . ولكن العكس هو الذي حدث : ألقيت نظرة على الصغير ، فرايت كفيه الهزيلتين الباكيتين واحسستني لا انسانا ، انني لم اكن أستطيع ان اشفق لا على الاخرين ولا على نفسي. وقلت لنفسي : « اريد ان اموت نظيفا . »

كان توم قد نهض فوقف تحت الفتحة المستديرة وجعل يترقب النهار . اما انا ، فقد كنت مصرا ، كنت أريد ان اموت نظيفا ، ولم اكن افكر بغير هذا . ولكني كنت منذ ان قال لنا الطبيب الساعة احس الزمن يجري من تحت ، يسيل نقطة نقطة .

وكانت السماء ماتزال مظلمة حين سمعت صوت توم :

ـ أتسمعهم ؟

ـ نعم .

كان ثمة اشخاص يمشون في الباحة .

ـ ماذا أتوا يفعلون ؟ انهم لايستطيعون ان يطلقوا في الظلام .

وبعد لحظة لم نسمع شيئا بعد . وقلت لتوم :

ـ هوذا النهار .

ونهض بدرو متثائبا واقبل يطفيء المصباح ، وقال لرفيقه :

ـ أي برد هذا !

وكان القبو قد غدا رماديا كله . وسمعنا طلقات نارية في البعيد. فقلت لتوم :

ـ لقد بدأوا . ولا بد انهم يفعلون ذلك في الساحة الخلفية .

وسأل توم الطبيب ان يعطيه سيكارة . اما انا فلم اكن اريد سيكارة ولا مشروبا . ومنذ تلك اللحظة لم يكفوا عن الاطلاق . وقال توم :

ـ هل انت مدرك ؟

وكان يريد ان يضيف شيئا ، ولكنه صمت ، وكان ينظر الى الباب. وقد فتح الباب ودخل ملازم بصحبة اربعة جنود . وترك توم سيكارته تسقط .

ـ ستينبوك ؟

فلم يجب توم . وكان بدرو هو الذي اومأ اليه .

ـ جوان ميربال ؟

ـ انه ذاك الجالس على القش .

قال الملازم : ـ انهض .

فلم يبد جوان حراكا ، فأخذه جنديان من ابطيه واوقفاه على قدميه . ولكنهما ما ان تركاه حتى سقط مرة اخرى . وتردد الجنديان ، فقال الملازم :

ـ ليس هو اول من عانى هذا ، فليس لكما الا ان تحملاه ، وستتدبر الامر هناك .

والتفت الى توم فقال له :

ـ هيا ، تعال .

فخرج توم بين جنديين ، وكان جنديان اخران يتبعانهم وهم يحملون الصغير من ابطيه وعرقوبيه . لم يكن مغمى عليه ، فقد كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما وكانت الدموع تسيل على خديه . وحين اردت ان اخرج ، أوقفني الملازم :

ـ أأنت ايبياتا ؟

ـ نعم .

ـ انتظر هنا : سوف ياتون لاخذك عما قليل .

وخرجوا . وخرج البلجيكي والسجانان كذلك ، وبقيت وحدي. ولم أكن افهم ما يجري لي ، ولكني كنت اوثر ان ينتهوا من الامر على الفور. وكنت أسمع الاطلاق في فترات منتظمة تقريبا ، وكنت ارتجف لكل مجموعة من الطلقات . وكان بودي ان اصرخ وان انتزع شعري . ولكني كنت اكز على اسناني وادس يدي في جيوبي لاني كنت اريد ان ابقى نظيفا .

وبعد انقضاء ساعة جاءوا ياخذونني فقادوني الى الطابق الاول ، الى غرفة صغيرة كانت تنبعث منها رائحة السيكار ، وبدت حرارتها لي خانقة . كان هناك ضابطان يدخنان وهما جالسان على أريكتين وعلى ركبتيهما اوراق .

ـ هل تدعى ايبياتا ؟

ـ نعم .

ـ اين رامون غري ؟

ـ لاادري .

وكان الذي يسألني قصيرا وسمينا . وكانت له خلف نظارتيه عينان قاسيتان . وقد قال لي :

ـ اقترب .

فاقتربت . فنهض واخذني من ذراعي وهو ينظر الي نظرة مرعبة . وفي الوقت نفسه كان يقرص عضلاتي بكل قواه . ولم يكن قصده ان يوجعني ، وانما كانت تلك اللعبة الكبرى : كان يريد ان يستولي علي . وكان يرى من الضروري كذلك ان يرسل انفاسه المتعفنة في وجهي .وقد بقينا هكذا لحظات ، وكان ذلك يوحي لي بالاحرى رغبة في الضحك .ان ارهاب انسان موشك على الموت يقتضي اكثر من هذا بكثير : فذلك لم يكن ليؤثر . وقد دفعني بعنف ثم جلس وقال :

ـ ان حياتك مقابل حياته . فسوف تنقذ حياتك اذا قلت لنا اين هو .

هذان الشخصان المبهرجان بسوطيهما وحذائيهما الطويلين كانا رغم كل شيء رجلين سيموتان . بعد موتي بقليل ، لا اكثر من ذلك . وقد كانا منشغلين بالبحث عن أسماء في اوراقهما ، وكانا يركضان خلف رجال اخرين ليسجنوهم او يعدموهم ، وكانت لهما آراء عن مستقبل اسبانيا وعن موضوعات اخرى . وكانت نشاطاتهما الصغيرة تبدو لي مزعجة ومضحكة لغلاظتها : كنت لا استطيع بعد ان اضع نفسي مكانهما ، فقد كان يخيل الي انهما كانا مجنونين .

كان القصير السمين ما يزال ينظر الي وهو يصفع حذاءه الطويل بسوطه . وكانت جميع حركاته مصممة على ان تكسبه هيئة حيوان حي

ومفترس .

ــ واذن ؟ هل هذا مفهوم ؟

فأجبت :

ــ لا اعرف اين هو غري . كنت أظن انه كان في مدريد .

ورفع الضابط الاخر يده الصفراء في تثاقل . وهذا التثاقل كان ايضا مصمما . كنت ارى وادرك جميع لعبهما ، وكنت مبهوتا ان يكون ثمة رجال يتسلون بهذا . وقال في هدوء :

ــ ان امامك ربع ساعة للتفكير. خذوه الى غرفه الغسيل، ثم أعيدوه بعد ربع ساعة . فاذا أصر على الرفض ، فسوف يعدم فورا .

كانا يعرفان ما يفعلانه : فقد كنت قضيت الليل في الانتظار ، وبعد ذلك جعلاني انتظر كذلك ساعة في القبو ، بينما كان الرصاص يطلق على توم وجوان ، وها هما الان يحبسانني في غرفة الغسيل ، ولا بد أنهما قد اعدا فعلتهما منذ الامس . كانا يقولان لنفسيهما ان الاعصاب تتلف مع مرور الوقت وكانا يأملان ان يتغلبا علي بهذه الطريقة .

ولكنهما كانا مخطئين . وقد جلست في غرفة الغسيل على كرسي صغير لاني كنت أحسني ضعيفا جدا ، واخذت أفكر . ولكن ليس بالعرض الذي قدماه . كنت بالطبع أعرف اين كان غري ، كان مختبئا عند اقاربه، على بعد اربعة كيلومترات من المدينة . وكنت اعرف كذلك اني لن اكشف عن مخبأه ، الا اذا عذباني . « ولكن لم يكن يبدو عليهما انهما يفكران بذلك » . كان ذلك كله مبتوتا فيه نهائيا ، ولم يكن يهمني قط. على اني كنت أود لو أفهم أسباب تصرفي . كنت اوثر ان اموت على ان أسلم غري . لماذا ؟ كنت قد كففت عن حب رامون غري. كانت صداقتي له قد ماتت قبل الفجر بقليل، في الوقت نفسه الذي مات فيه حبي لكونشا، وفي الوقت نفسه الذي ماتت فيه رغبتي في الحياة . لا شك في اني كنت ما أزال احترمه ، فقد كان رجلا صلبا . ولكن لم يكن ذلك هو السبب الذي كنت من أجله اقبل ان ا[illegible] بدلا منه ، فانه لم يكن لحياته من القيمة بعد اكثر مما كان لحياتي ، لم يكن لاية حياة قيمة . سوف يسند رجل الى جدار ، وسيطلق الرصاص عليه حتى يموت : اكان هذا الرجل انا ام كان غري ام كان اخر ، فالامر سواء . صحيح اني كنت أعرف انه كان انفع مني لقضية اسبانيا، ولكني كنت لا اكترث باسبانيا وبالنظام الفوضوي : لم يكن ثمة أهمية لشيء بعد . ومع ذلك ، فقد كنت هنا، وكان بامكاني ان أنقذ جلدي بتسليم غري ، وكنت ارفض ذلك . كنت أجد هذا اقرب الى ان يكون هزليا : فقد كان ذلك من قبيل العناد. وفكرت :

ــ هل ينبغي للمرء ان يكون عنيدا ؟

وغمرني شعور غريب من الجذل .

وافبلا يأخذانني ويقتادانني الى الضابطين. وانطلق جرذ تحت اقدامنا فتسليت برؤيته . والتفت نحو أحد الكتائبيين وقلت له :

ــ هل رأيت الجرذ ؟

فلم يجب . كان مقطبا يأخذ نفسه بمأخذ الجد . اما انا ، فكانت بي رغبة في الضحك ، ولكني كنت أتمالك نفسي لاني كنت أخشى ، اذا بدأت ، ألا أتمكن من التوقف . وكان للكتائبي شاربان ، وقد قلت له أيضا :

ــ يجب ان تقص شاربيك ، ايها الثقيل .

كنت أجد غريبا ان يترك لشعره ، في حياته ، ان يكتسح وجهه. وقد ركلني بقدمه من غير اقتناع كبير ، فصمتّ .

وقال الضابط السمين :

ــ واذن ، هل فكرت ؟

كنت أنظر اليهما في فضول ، كأنهما حشرتان من نوع نادر جدا.

وقلت لهما :

دار النشر للجامعيين

مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع ـ يشرف عليها لجنة من الجامعيين

المدير المسؤول : محمد انيس الطباع

بيروت ـ شارع سوريا ـ بناية درويش ، هاتف ٢٠٧٣٧ ـ ص . ب ٣٨٧٤

تفخر بأن تقدم للقارىء العربي الروائع التالية :

		السعر ق . ل
أنا كرنينا	تأليف ليو تولستوي	٥٠٠
امرأة من روما	تأليف البرتو مورافيا	٦٠٠
الامال الكبيرة	تأليف تشارلز ديكنز	٥٠٠
الارض العذراء	تأليف بيار روفائيل	٤٠٠
الناصر لدين الله	تأليف سيمون حايك	٤٠٠
جندي مع العرب ((طبعة ثانية))	مذكرات كلوب باشا	٥٠٠
الماركسية في الفلسفة	تأليف حسني ناثان	٦٠٠
المبادىء العامة للفقه الجعفري	تأليف هاشم معروف الحسيني	٦٠٠
هكذا تكلم زرادشت	ترجمة غياث حجار	٥٠٠
ابن هانىء الاندلسي	تأليف الدكتور منير ناجي	٥٠٠
ليبيا العربية	تأليف الدكتور ممدوح حقي	٣٠٠
تاريخ الفقه الجعفري	تأليف هاشم معروف الحسيني	٤٠٠
المرأة في حضارة العرب	تأليف محمد جميل بيهم	٥٠٠
قبس من الاسلام	تأليف الشيخ معوض عوض ابراهيم	٥٠٠
الحلة السيراء	تحقيق الدكتور عبدالله الطباع	١٥٠٠
فتوح البلدان	تأليف البلاذري	١٥٠٠
الصيد والطرد عند العرب	تأليف الدكتور ممدوح حقي	٣٠٠
نظريات دوائر الالكترونيك	بقلم الدكتور نور الدين الربيعي	٢٢٠٠

– انني أعرف اين هو . انه مختبىء في المقبرة . في قبو صغير او في كوخ الحفارين .

وكانت تلك أكذوبة . كنت اريد ان أراهما ينهضان فيربطان حزاميهما ويعطيان اوامر بلهجة اهتمام .

وقد قفزا على قدميهما ، وقال القصير السمين :

– هيا بنا . اذهب يا مول فاطلب خمسة عشر رجلا من الملازم لوبيز . واما انت (والتفت الي) فليس لدي الا كلمة واحدة ، اذا قلت الحقيقة . اما اذا سخرت منا ، فستدفع الثمن غاليا .

وانطلقا في صخب وأخذت انتظر في سكون تحت حراسة الكتائبيين. وكنت ابتسم بين الفينة والفينة لاني كنت أتمثل الهيئة التي تكسو وجهيهما . كنت أحسني مخبلا وخبيثا . وتصورتهم يرفعون احجار المقبرة ويفتحون ابواب الاقبية واحدا واحدا . كنت أتمثل الموقف كما لو اني كنت شخصا اخر : هذا السجين الذي يصر على ان يظهر بمظهر الابطال ، واولئك الكتائبيون الرصينون بشواربهم ، وهؤلاء الرجال العسكريون الذين يركضون بين القبور ، كان ذلك مشهدا لا يمكن مقاومة ما يثيره من ضحك .

وبعد نصف ساعة ، عاد القصير السمين وحده . وفكرت بانه قادم ليعطي امر تنفيذ الاعدام بي. اما الاخرون ، فلا بد انهم باقون في المقبرة.

ونظر الي الضابط ، من غير ان يبدو عليه أي مظهر للارتباك وقال:

– خذوه مع الاخرين الى الساحة الكبيرة . ان محكمة عادية ستقرر مصيره بعد نهاية العمليات العسكرية .

وحسبت اني لم أفهم . فسألته :

– انني اذن لن .. لن أعدم ؟

– ليس الان على كل حال . اما فيما بعد ، فذلك لا يعنيني.

وظللت غير فاهم ، فقلت له:

– ولكن لماذا ؟

فهز كتفيه من غير ان يجيب ، واقتادني الجنود.

وكان في الساحة الكبيرة زهاء مئة سجين ، بينهم نساء وأطفال وبعض شيوخ. وأخذت ادور حول الحديقة الوسطى الخضراء ، وانا شبه مخبول . وقدموا لنا الطعام ظهرا في قاعة الاكل . وقد ناداني شخصان او ثلاثة لا بد أني كنت أعرفهم ، ولكني لم أجبهم : انني لم اكن اعرف بعد حتى اين كنت.

وحوالي الظهر دفعوا الى الساحة بما يقارب عشرة معتقلين اخرين. وعرفت بينهم غارسيا الخباز ، فقال لي:

– ايها المحظوظ الملعون ! لم اكن أظن انني اراك ثانية على قيد الحياة.

قلت: – كانوا قد حكموا علي بالموت، ثم غيروا رأيهم، لا أدري لماذا.

قال غارسيا : لقد اوقفوني عند الساعة الثانية.

– لماذا ؟

لم يكن غارسيا يتعاطى السياسة. وقال :

– لا ادري . انهم يعتقلون كل من لا يفكر مثلهم.

وخفض صوته :

– لقد قبضوا على غري .

فأخذت أرتجف :

– متى ؟

– هذا الصباح . لقد كان حمارا . لقد ترك ابن عمه يوم الثلاثاء لانهم بلغتهم عنه كلمات . وهو لم يكن يعدم اشخاصا كانوا مستعدين لاخفائه ، ولكنه كان يريد الا يكون مدينا لاحد بعد . وقد قال : « كان بودي ان أختبىء في بيت ايبيتا، ولكن ما داموا قد قبضوا عليه، فسأذهب لاختبىء في المقبرة » .

– في المقبرة ؟

– نعم . كانت تلك حماقة . ولقد مروا بالمقبرة طبعا ، هذا الصباح، وكان هذا متوقعا . وعثروا عليه في كوخ الحفارين . وقد أطلق عليهم الرصاص فاجابوه بالمثل وأردوه قتيلا .

– في المقبرة !

وأخذ كل شيء يدور ، ووجدتني جالسا على الارض : كنت أضحك بشدة ، حتى ان الدموع طفرت الى عيني.

صدر حديثا :

من القاهرة الى معتقل قاسم — **المشانق والسلام** (شعر)

كتابان من تاليف

الاستاذ عدنان الراوي

فصول مثيرة عن الاضطهاد الذي فرضه العهد القاسمي الاسود على احرار العراق في سرد جذاب يتابعه القاريء بحماسة

الثمن ٢٥٠ ق.ل

قصائد قومية هادرة تفضح زيف دعاة السلام في العراق وتصور العهد الشعوبي الاحمر الذي أزالته ثورة ١٤ رمضان المجيدة

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب